

العيد !

للسيدة الفاضلة منيبة الكيلاني

تمر أيام العام بسرعات والناس في شؤونهم الخاصة من زحمة الميش وتلص الرخاء ، والضيق والرغبة في الفرج ، والسقام وأمل الشفاء ، ويأتي العيد فيكون بين العيد ووسادته ليلة العيد حديث ونجوى ؟ فيين معيد ووسادته من ثورات النفس ودوار الرأس وجهد الخاطر الكليل ما بين معيد ووسادته من بسمة الأمل وهشة الرجاء وتطاق الوجه . ولقد تنجس العبرة طول العام من نكبة نازلة فلا ترسل إلا في مقدم العيد مطلقة غير مقيدة ، فتأخذ في العيد ررعة وشكلا ليسا من شأنها ولا من شأن الأيام الأخرى . وهكذا تصبح جهشة العيد جهشة مززلة ، وتفدو دموع العيد جد حرار . ولقد تبقى البسمة خالدة كابية طوال العام أيضاً لا ترى ما يرسلها مجلوة مشرقة حتى يأتي العيد ، فإذا البسمة تاج على الثغر — كالجديد من الآكسية — تتحدث للوسادة عن النصر الذي أحرز ، والعمل الذي أُججز

هذه بسمة العيد ليست من ابتسامات العام ، وهذه جهشة العيد ليست من دموع الحول ، إنما هي في الحالتين محصل ما في العام كله من شدة ورخاء ، وعذاب وهناء ، وعزة وشقاء ، تجتمع في العيد كما تجتمع أضغاث المنى على الثغر الحالم ، وأضغاث المال في ثوب جديد وكساء جديد ، كذلك مشاعر النفس وأضغاث خويصاتها تتجمع لتبرز في العيد في فرح جديد وحزن جديد .

وضجمة الإنسان ليلة العيد وسهوم فكره ، واتساع مخيلته وشروود ذهنه ، تتسع وتقصر ، وتكبر وتضيق ، بمقدار ما توافر لديه من أسباب وعمل تجتمع كلها في حقيقتين أساسيتين فيهما جواب هذا التسأل الذي يدور على الخاطر ويلم بالنفس : وهو لما ذا تنطري نفس وتبتهج للعيد ، وتأسى نفس وتضيق له ، وتذرف فيه الدمع ويحلو لها الصمت والأشجان ؟

تسبح مادة الحوار بين المرء ووسادته ليلة العيد بسمة الجواب على هذا السؤال . والواقع أنه سؤال في منتهى الوجاهة وخفة الظل : لما ذا تأسى نفس وتفرح نفس وليس بين النفسين إلا قرني

وأوجه شبيهة ... هذه نفس تذرف الدموع ، وهذه نفس توزع الابتسام ؟

العيد يفرض على العيدين مشاعر خاصة هي التي تملل هذه الظاهرة ... ظاهرة الحزن الجديد والفرح الجديد ...

العيد يقوم من جهة بدور المدسة المكبرة تترامى ما بعدها من الرئيات كباراً غلاظاً باذخة الأطراف شائخة الهامات ، ويقوم العيد من جهة أخرى بمقد مقارنات سريعة عاطفية بين المرء والمرء وبين المرء ونفسه ، فقارئة بين خائب ومصيب ، وبالغ ومقصر ، ومقل ومكثر ، وغنى وفقير ، وجائع وشبعان ، تقتفى بهذا الإحساس الذي نحن بصدده من الشمور

يصاب الإنسان بما يصاب به من اقرب هذه الحياة ووعنائها ، فإذا أتى العيد ، وكانت النعمة التي لديه لا تزدهيه في سائر الأيام ازدهته في ذلك اليوم ، لأنه ينظر إليها من خلال العيد فيراها كبيرة باذخة فيرتاح لها ويتبجح ، أما إذا كان ما بين العيد والعيد حزن وألم ، فإن هذا العيد لن يرى صاحبه إلا ألماً كبيراً .

أما المقارنات ، فأمرها أشد ووقتها أمض ، مقارنات يقدها العيد بين شخص وشخص ، وبين شخص ونفسه ، في زمنين مختلفين ، هذان اليقان آض ما بينهما كلاماً في غير دقة ، وسلاماً في غير رقة . وهذه قلوب كانت تحن ، فأضحت تن . وهذه مسكينة كانت في العيد السالف في كلاءة أبوين ، فصارت في هذا العيد سطرأ في كتاب اليتيم ... وهذه أم كان لها في العيد السابق فتى يعلأ دنيا أحلامها بأشغاث المنى فاحتسبته وأقامت تندب ذكراه . وهذا أب اغتالت النية وحيدته فتركته لا يقدر على شيء ، وهذا فتى في ميمة الصبا كان وثيق التركيب جميل المظهر ، ولكن العيد وجده في مخالب المرض ينفث نفسه وينتظر رسمه . وهذه أمة كانت بالأمس الدابر تملأ حيزاً ومكاناً ينظر إليها الناس أمة فأصبحت أمة ... كل هذه مقارنات يأتيها العيد بين شخص ونفسه في زمنين مختلفين تملؤها غصة وشكاة ودموعاً .

ولقد تكون المقارنة بين شخص وشخص ، فينظر العليل الفقير وقد عرف الفقر وعرفه طوال العام ، ينظر إلى الثوب المتواضع الذي أنثقت فيه أمه جهد شهر في الخدمة ... ويقارنه بالثوب المتزف الفاخر الذي يرتديه فيره من الأطفال فيستشمر

لأول مرة في العام خفقة الألم . وينظر الحائض وقد عرف الجوع وخبر بلواه إلى الشبان الذي عرف التخمة وخبر بلواها ، فيتاله من مقارنة العيد الم جوع والم غضاضة ، وينال الآخر لذة شبع ولذة مكثرة ا

وينظر اليتامى في اللجأ إلى هياكل أجسادهم رمعدهم ، وقد كانت ثياب هذه الهياكل طول الحول قطعاً من فضل المحسنين ، وهذه المدد طول العام وعاء للخيرات ... ولكن العيد يرسل إلى هؤلاء مقارنة بينهم وبين -وامم عن رداؤهم قطعة واحدة من يد محسنة واحدة ، فتأسى الأنفس وتذكر في سبيل المقارنة ما قلها . هكذا تنقد اللوعة ، وهكذا تزداد الشكاة في العيد ، وأولئك

الغلف قلوبهم لا يملون أن في الناس من بذوق طعم الموت وهو حي . وهكذا يجد الواحد منا كيف تتعاقب الأيام بالسراء والضراء فيفيد من هذه وهذه ، أن الأمور لا تقيم على حال ، وأن وراء الشدة رخاء ، وبعد العناء عزاء ، وأن العيد إن أساء فقد يحسن ، وأن الصبر أجدر من حلم ضائع ورشاد سليم وفؤاد هواء ، ثم يجد الواجد فوق ذلك - وقد خبر النعمة والدمعة - كيف يسانف اليد المحسنة والسائدة السعفة ، وينتزع من أحاسيس نفسه وخارجاتها ما يشغف به القلب الذي أضاع الشفاف ، والفؤاد الذي برحت به النوب ونخارمته الأوصاب ، وكل إحسان في العيد عيب في الإحسان ، فالصاغية والابتسامه والقبيلة والدرهم وبطاقة العيد والهدية والزياره والتفقد والتسأل وعبادة الريضى والإشراف على موطن الألم من التألم ، وكفكفة دمعة الباكى ذمبح رأس اليتيم كل أولئك كجرعة الماء في المهمة الفقر . . وإن كانت ماء نهي لذى غلة به إليها تخنان ، وله إليها تشوف وتزوع ؛ وهي في مفهوم الصحراء المهلكة ذهب وفضة وخيل موممة وأنام وحرث . والهلوب بالغة ما بلغت من الاختلاف والمايز لا يؤلف بينها ولا يجمع شتاتها ولا يحمل منها وحدة رصينة مثل رباط المشقة وصلة المشككة ، فلقد يصرف في سبيل توثيق صلة من صلات الود ما يصرف من وقت ومادة . ثم لاتتوثق هذه الصلة كما تتوثق أخرى لم يصرف فيها إلا تفقد وتسأل واشتراك في محنة . . وهذا العيد يتيح هذه الفرصة ويمكن لمن يريد أن يشتري قلوب الناس . أن يشتريها بأمان بحمة لا يستطيع أن يحصل

عليها في الطروف الاعتيادية ، لاتي هذه الفرصة إلا مرتين في العام توضع فيها هذه القلوب البشرية الخفاقة بالزاد الملقى يشترها من كان لديه المال الكافي من الطف والرعاية والحنان ، وإنه في الحق انصيب عظيم أن تشتري قلباً بالبتسامه وقلبك بتفقد وقلبك بصاغية وقلبك بهدية وقلبك بدمعة وقلبك بزيارة ... وهذه القلوب مها ضمعت ومها كانت ذابرة نحيلة ، ومها كانت منذرة بالفناء فهي تدوم على الأقل خفاقة للعيد القادم يوم تعرض قلوب جديدة بأمال جديدة وآلام جديدة تبتنى شارباً جديداً بطف جديد وهكذا ...

ولى كبد مقروحة من يبيعى بها كبداً ليست بذات قروح هذا نداء يحسمه العيد . . وفي الطوق والإمكان أن يليه كل ذى كبد فيمود بكبد صحيجة وكبد مصححة ييسم لها لأنه صححتها وتيسم له لأنها تعترف بالفضل ، وما بين الابتسامتين من ممانى الجلال ما لا يقوم له شيء ويمود معنى ...

ولى كبد مقروحة من يبيعى بها كبداً ليست بذات قروح معنى جديداً كالعيد الجديد بين كل اثنين من العيدين مؤداه :

كلى بكلك ممزوج ومتصل والحادثات التي تؤذيك تؤذيني

ليكن مقياس العيد مقياساً أكبر من مقياس المادية . . فلا تقل

وقد أدبر العيد كم ثوباً جديداً ابست ، بل قل كم قلباً اشترت ،

وكم كبداً صححت ، وكم تفرأ بالابتسام ما سكت ، وكم دمعة حارة

من دموع العيد كفكفت . . فذلك أقرن بالإنسانية وأدعى للفخر

وأجلب للبهجة وأكثر اتساقاً مع معنى العيد .

صنية الكيبلنى

ظهر هديتنا :

الطبعة الجديدة المزبورة من كتاب

في أصول الأدب

يطلب من دار الرسالة

ومن الكاتب الشهيرة وثمنه ٢٥ قرشاً